بمناسبة الإعلان عن " حزب مصر الأم"

أنا المصرى... العربى

طالعتنا وسائل الإعلام فى الأيام الأخيرة بأنباء تقدم مجموعة من المؤسسين إلى لجنة الأحزاب للموافقة على قيام حزب أسموه" حزب مصر الأم"، ومع إحترامنا الكامل لحرية الفكر والتعبير عن هذا الفكر، فإننا لا نستطيع أن نخفى دهشتنا إن لم يكن صدمتنا من المنطلقات الفكرية والمقولات الفلسفية التى يقدم بها هذا المشروع، فضلاً عن التساؤل حول توقيت الإعلان عنه فى الظروف الحالية والتى لا تحتاج إلى كثير تفصيل.

وقد جاهدت نفسى ألا أدخل فى جدل حول ما يذهب اليه مؤسسو مشروع "حزب مصر الأم" خاصة ما يتصل بأن المصريين ليسوا عرباً، وأنه لا بد من تدريس تاريخ مصر الفرعونية واللغة الهيروغليفية فى كل مراحل التعليم، وأن القومية (المصرية) قد صنعت إمبراطورية سقطت مع (الغزو) الإسلامى، فضلاً عن الإدعاء بأن القومية العربية قد ماتت مع موت جمال عبد الناصر ودفنت مع غزو العراق للكويت عام 1990، فقد أغنانى ويغنينى كثيرون فى هذا الشأن، واستقر رأيى أن أستأذن قراء الأهرام الأعزاء فى أن تنشر لى صحيفتنا الرصينة مقالاً كتبته منذ نحو ربع قرن(بالتحديد فى ديسمبر(كانون أول) عام 1979 فى مجلة الموقف العربى العدد 32) بعنوان" أنا المصرى... العربى" وأترك لكم أعزائى القراء مهمة التحليل وتبيان الحقيقة وتقرير ما إذا كان هناك جديد تحت الشمس.

" أنا المصرى..... العربى"

تجدد فى الآونة الأخيرة الحديث عن ارتباط مصر بالعرب، وأثيرت من جديد قضية أن مصر فرعونية عليها أن تنعزل عما حولها وأن تتفرغ لقضاياها الخاصة وأن تنحى جانباً دعوة القومية العربية والوحدة العربية.

ولقد أنبرى من يواجه هذه الدعوة الإنعزالية ويفند مبرراتها ويؤكد على حقيقة عروبة مصر ويضغط على دورها ومسئولياتها فى العالم العربى.

وحقيقة القول أن الذين ينكرون خصوصية قطر من الأقطار العربية يخطئون إذا قصدوا خدمة قضية الوحدة العربية، كما يخطىء كل الذين يحاولون التمسك بالخصائص المميزة لقطر من الأقطار العربية للتحدث عن زيغ مصر عن العروبة مثلاً أو الإعتراض على عروبتها أو ربما نكرانها.

إنهم يخطئون لأن عروبة مصر حقيقة تاريخية لا يمكن تجاهلها. وأن التمسك بعروبة مصر لا يعنى التنازل عن تاريخها ولا جهل بتراثها الفرعونى الذى يزين اليوم متاحفها والكثير من متاحف العالم. ولا يعنى- كما ذهب الدكتور طه حسين حين عاد من أوروبا فى العشرينيات- هدم أبى الهول والأهرامات وإنما عروبة مصر تعنى الشعور العربى والانتساب إلى الأمة والحضارة العربية والعزم على مواصلة تغذيتها وإثرائها بعبقرية الشعب المصرى ووجدانه وفكره والوعى الكامل بحتمية المصير المشترك.

إن قضية القومية بين الوحدة والتنوع قضية حيوية لا يزال النقاش يدور حولها منذ سنوات طويلة وقد مررنا بها نحن العرب بأطوار:

ففى وقت من الأوقات وفى عهد الاستعمار على وجه الخصوص ظهرت الإقليمية وتعالت فى بعض الأقطار العربية أصوات دعاة الإقليمية العربية الفينيقية والفرعونية فى الشرق والبربرية فى بلاد المغرب.

وفى الخمسينيات والستينيات كانت القومية العربية، بالرغم من أن مفاهيمها ومضامينها كانت تتغير بتغير المتكلمين عنها والداعين لها وبالرغم كذلك من عدم الاتفاق حول جذورها التاريخية وبالرغم أيضاً من الالتباس اللاصق بها من حيث أنها إنتماء تارة ومحتوى أيديولوجى أو حركة تحرر تارة أخرى ... إلخ.

ويجىء يوم 16 يناير(كانون الثانى) سنة 1956 ليتبوأ مكانة خاصة فىتاريخ نشوء" فكرة القومية العربية فى مصر" لأنه فى اليوم المذكور أذاع زعماء ثورة يوليو 1952- باسم الشعب المصرى- الدستور الجديد وأعلنوا فيه" عروبة مصر" بصورة رسمية.

وجاء فى ديباجة الدستور" أن شعب مصر يشعر بوجوده متفاعلاً فى الكيان العربى الكبير وتعدد مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لنصرة الأمة العربية ومجدها".

والواقع أن مصر كانت قد أخذت تسير فى مضمار" الشعور بالعروبة" منذ فترة ليست قصيرة إلا أن سيرها هذا ظل بطيئا حتى نكبة فلسطين. ذلك أن آراء المصريين فى القضايا القومية كانت مبلبلة ومقسمة بين النزعة الفرعونية والإقليمية المصرية. والرابطة الشرقية والجامعة الإسلامية. وأما فكرة القومية العربية فكانت تتعثر بين هذه التيارات المختلفة وتشق طريقها بصعوبة كبيرة.

ولكن هذه الأحوال أخذت تتطور - بعد كارثة فلسطين- بسرعة كبيرة وصارت فكرة العروبة تزداد قوة يوما بعد يوم وأخذت تتغلب على النزعات الأخرى بسرعة متزايدة.

وقد أخذت هذه السرعة تتزايد وتتضاعف بوجه خاص بعد قيام ثورة يوليو 1952 وتغييرها نظام الحكم فى مصر.

إن أبناء العرب الذين كانوا تحت الحكم العثمانى المباشر– قبل الحرب العالمية الأولى– كانوا يرنون بأبصارهم نحو مصر ويعلقون عليها أوسع الأمال. وكثيراً ما توجه رواد الحركة القومية العربية ودعاتها أفكارهم وأمانيهم نحو مصر آملين الاستفادة منها والإستعانة بها فى ذلك السبيل.

ومن الثابت أن منتصف القرن التاسع عشر كان بداية الوعى القومى الحديث" ففيه خطا الوعى القومى خطواته المتواضعة الأولى بتأليف الجمعيات والنوادى الأدبية ،والعلمية فى بيروت ودمشق.

والقومية مصدر مشتق من كلمة "القوم" والنسبة إليها" قومى" والقوم فى لغتنا هم الجماعة من الناس الذين يسكنون أرضا معينة ويتكلمون لغة واحدة ولهم تاريخ مشترك ومصالح مشتركة وهى ترادف الأمة فى معناها.

والعالم العربى رغم ما يعترض وحدته السياسية بالمعنى المعروف من عوامل التفتت والتجزئة والمشكلات المحلية تتوافر له مقومات عديدة فى هذا الصدد: أرض تقطنها جماعة بشرية ولغة واحدة يتحدثون بها ووحدة فى الفكر والتاريخ والتقاليد والعادات ثم إرادة مشتركة ورغبة فى الحياة المشتركة وشعور شامل بوحدة المصير، حتى أنه مع صرف النظر عن الوحدة السياسية القانونية فإن المجتمعات المحلية داخل العالم العربى كانت فى تاريخها الطويل متكاملة فى رواية أحداثها متضامنة فى دفع ما يعُرض لها من شدائد متكافلة فى حاجاتها المادية وإمكانياتها الثقافية على نحو شمل حياة المجتمع العربى كله وانتقل منها إلى حياة الفرد.

هؤلاء العرب الذين انتفض إحساسهم بكيانهم القومى وماضيهم التاريخى فى فترات متعاقبة من فترات هذا التاريخ عقب تحقيق الاستقلال، تبينوا فيها أن هناك أكثر من عامل يسوغ وحدتهم بشكل أو بآخر ويفرض حتمية هذه الوحدة.

وقد هداهم وعيهم القومى فى بادىء الأمر إلى أن تتخذ هذه الوحدة شكل وحدة إسلامية أو حركة من حركات التحرر الإسلامى ولا شك أن دعوة تقى الدين أحمد بن تيمية فى كتابه: "السياسة الشرعية" الذى ألفه فى أواخر القرن الثالث عشر، إنما كان صرخة فى سبيل هذه الوحدة.

لقد كانت الخلافة كرمز أعلى للدول الاسلامية هى رابطة الولاء المشترك بين المسلمين جميعاً على اختلاف جنسياتهم السياسية ولغاتهم.

ولما بدأت الفرقة تدب وتعددت الرئاسات ظل هؤلاء العرب المسلمون برغم التعدد ينطوون تحت لواء جنسية "روحية" واحدة إلا الاسلام.

ولما انتقضت دولة الخلافة وهى تركيا على فكرة التضامن الاسلامى بالترويج لفكرة الوحدة الطورانية أى الفكرة التى تستند إلى" الجنس" أو" العنصر"، اتخذت فكرة الوحدة العربية لدى العرب إتجاها آخر يستند إلى وحدة التاريخ والثقافة واللغة والكفاح المشترك للتخلص من السيادة العثمانية، حتى إذا ما بدأت هذه الدول العربية المستقلة تبرز فى المجتمع الدولى وضح جلياً أن عروبة هذه الدول أصبحت قاعدة من قواعد قانون دولى عربى ينتظم علاقاتها.

والحديث عن عوامل التكامل والوحدة بين الدول العربية ومقومات العربوة حديث معاد لا نود أن نخوض فى تفصيلاته حيث لا تدعو الحاجة إلى ذلك وينبغى علينا التركيز على ما أثرناه فى البداية من حديث حول مصر والعروبة فذلك مقصدنا.

يكفى أن نتذكر أن أقدم ذكر للعرب– بهذا الاسم – ثابت فى نقش يعود إلى الملك الأشورى شلمينصر الثالث الذى أراد فى عام 854 ق.م. أن يضم منطقة دمشق إلى دولته العراق. كما ذكر هيرودوتس(484– 425 ق.م) أن الأرض العربية هى التى تقع فى أقصى الجنوب. وقد استخدم هؤلاء العرب فى الكتابة"خطا" يذهب علماء اللغات إلى أن مصدره الأبجدية السيتائية وهى التى نقلت فكرة التدين عن الهيروغليفية.

ويقرر الأستاذان موريه وافى أن اللغة المصرية القديمة بها أوجه شبه رئيسية تبدو واضحة بينها وبينها وبين اللغات السامية فى قواعد النحو والصرف والضمير الشخصى وتصريف الأفعال، وإنتهى موريه ودافى إلى أن لغة المصريين القدماء وإن احتوت على عنصر أفريقى من الشمال ومن الجنوب أى من لغة البربر والافريقيين فأنها تحتوى– فوق كل شىء– على عنصر سام.

إن قضية المصرية والعربية أو قضية الفراعنة والعرب ليست جديدة فلقد أثارها أحمد لطفى السيد (باشا) حين قال لمجلة المصور فى 5 مايو 1950" إننا نحن المصريين يجب أن نتمسك بمصريتنا ولا ننتسب إلى وطن غير مصر مهما كانت أصولنا".

وأيضاً قال حفنى محمود (باشا) فى المصور 21 مارس سنة 1950" هذه الجامعة..فضوها" وسار فى نفس الإتجاه السابق، وزاد عليهم الدكتور أحمد زكى حين نشر فى المصرى آنذاك مقالة بعنوان "ما

العرب وما الفراعنة؟ إنما نحن قوم مصريون" إنتهى فيها إلى أن مصر ليست فرعونية وكما هى أيضاً ليست عربية... هى أمة قائمة بذاتها مستقلة عن العربية وعن الفرعونية !

إن بعض دعاة العزلة والإنفصال يستندون فى دعواهم إلى أن كلمة National الفرنسية تعنى جنسية وعلى ذلك نقول جنسية مصرية وأخرى عراقية لكن لا توجد جنسية عربية والرد على ذلك أنه يجب أن نفرق بين المعنى الفقهى لهذه الكلمة والمعنى الاجتماعى لها فالمعنى الفقهى ينصرف إلى انتساب الفرد إلى دولة من الدول، أما المعنى الإجتماعى فينصرف إلى انتساب الفرد إلى أمة من الأمم ولو لم تكن تلك الأمة فى حالة دولة، ونجد هذا التمييز واضحاً فى معجم المصطلحات الفلسفية، وهو لا يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك، أن هذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد.

والحديث عن شخصية مصر لا يعنى إقليمية ضيقة فضلاً عن شوفينية شعوبية، ولا يضع الوطنية فى مواجهة ضد القومية، أنه لا يؤكد الوطنية من خلال القومية فحسب بل ويؤكد القومية من خلال الوطنية تأكيداً صحيحاً بغير تعارض.

وبالإضافة إلى ما يضيفه موقع مصر الجغرافى ومواردها وإمكانياتها على دورها فى العالم العربى، فإن موقع مصر من العروبة يتميز بعد هذا بصفة هامة هى أن مصر من الدول العربية القليلة التى لا حدود لها مع غير العرب فهذا العمق الجغرافى لم يمنحها الأمن والسلامة الإستراتيجية فحسب، بل جعلها طوال التاريخ تتعامل وتتفاعل مع عرب وعروبة بعكس أطراف العالم العربى نفسه حيث تعرضت للمؤثرات الأجنبية المتاخمة، وبعض من أطراف العروبة تعرف ملامح خلط ثقافى وحضارى بل جنسى خطير، فثمة مؤثرات تهنيد فى كل الجنوب العربى ومؤثرات التعجيم فى الخليج العربى والتتريك فى تخوم سوريا وثمة أخطار الصبغة الأسبانية فى هوامش المغرب وبالمثل الزنجية فى السودان.

أن مصر تزداد عروبة مع التاريخ، ولقد زودتها الطبيعة بكل الصفات والمزيا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة فى إنهاض القومية العربية، وهذه الزعامة تكليف من الجغرافيا وتقليد من التاريخ وهى مسئولية فادحة تفرضها الطبيعة على مصر، ومصر تقوم بدور الشقيقة الكبرى ولكن ليس بمقياس السن أو الحجم بل هى النموذج والمثل ورسالتها فى هذا السبيل شاقة ومجهدة ولكنها حتمية.

والعروبة التى نقصدها هى الحضارة العربية التى نفخ فيها الإسلام من روحه وأعلاها وهذبها ومنحها بعداً إنسانياً مشرفاً.

إن هذه الأمة العربية الإسلامية ذات اللغة والعقيدة والحضارة والقيم العليا الواحدة، لا تعنى انتفاء الخصائص العمرانية أو الذوقيه أو الوجدانية التى يمتاز بها قطر من الأقطار، بل أن الشعوب التى تتكون منها هذه الأمة العربية الاسلامية هى بمثابة الروافد التى تصب فيها فتثريها وتدعم وحدتها بمختلف مميزاتها وألوانها.

أن التمصير أو التونسة أو السودنة أو التقطير أو السعودة... إلخ، لا تعنى الانسلاخ عن العروبة بل معناها الاحتفاظ بالخصائص التى تميز كل منها عن سائر الاقطار المشتركة معها فى العروبة ذلك أن العروبة ليست شيئاً جامداً بل هى جسم تحرك حى نام متطور بتطور وحيوية الشعوب التى تتكون منها. أنها ليست معنى عرقياً بل هى تعبير حضارى.

وأخيراً فإنه فى الحديث عن الشخصيات الإقليمية للدول العربية والقومية العربية أو العروبة التى تجمعها فى إطار يمكننا من أن نتحدث بيقين عن قومية عربية وأمة عربية واحدة أن نتذكر جيداً الأمور التالية:

1- أنه لا بقاء للكيانات الذرية فى قلب عالم تسوده الكتل المجتمعة الكبيرة ومن ثم فالخيار أمام البلاد العربية إما تأسيس الوحدة العربية بمنطلقاتها القوية حتى تتمكن من تحقيق التقدم والتنمية وإلا فلن يكون أمامها سوى الخضوع لأحد التكتلات الكبرى ومن ثم القضاء على شخصيتها المحلية وشخصيتها العربية أيضاً.

2- أن المحلية ببنائها وشخصيتها تعتبر نسقاً فرعياً من العروبة كنسق ومن المجتمع العالمى كنسق أيضاً، والقضية هنا هى أنه إذا لم تتوافر الأسس الموضوعة للعربية كنسق مستمد منه المحليات ومن المجتمع العالمى كنسق أيضاً، الأساسية وتسير فى تنميتها وفقاً لخطوطه ومن ثم تنعكس ملامح النسق العربى على محلياته. فإن هذه المحليات سوف تتبع النسق العالمى الذى ينقسم بدوره إلى كتلتين وهنا ترتبط بإحداهما بحيث يكون ذلك على حساب اندثار ملامح العربية كنسق.

3- أن المحليات أو الإقليميات فى بعض خصائصها موضع مشاركة عربية بالاضافة إلى مجموعة من الخصائص موضع المشاركة العالمية بالاضافة إلى بعض الخصائص الخاصة المتميزة. ومن هنا فعلى

العقل العربى أن يتحرك بوعى وموضوعية لتأكيد الخصائص العربية على حساب الخصائص المحلية والعالمية.

وبعد... اليس من المثير للدهشة والغرابة معاً أنه في الوقت الذى يتحدث فيه العالم عن العرب كقوة سادسة وتثبت الصهيونية دعايتها عن مساوىء وعيوب نلصقها بالشخصية العربية والعروبة. نجد نحن العرب بعضاً منا يتقدم فينكر على بعض البلدان العربية عروبتها ويدعو إلى العزلة والانفصال ويجدد الدعوة إلى أن تتقوقع مصر داخل حدودها وتتخلى عن مسئولياتها!!

الفرعونية وأبا الهول والأهرامات لم تمنع ولن تمنع مصر من الإندماج فى ركب العروبة وأن مصر من أجل الوحدة العربية ليست مطالبة بهدم هذه الآثار.

إن أحداً لا يطلب منى أن أتنازل عن مصريتى بل دعوة القومية العربية والعروبة تطالبنى فقط بأن يكون لدى شعور خاص بأنى مصرى وشعور عام بأنى عربى...

لذلك أقول أنا المصرى... العربى... وطنى الخاص مصر ووطنى العام العالم العربى الكبير.

أ.د. عطيه حسين أفندي

أستاذ ورئيس قسم الإدارة العامة

كلية الإقتصاد والعلوم السياسية

جامعة القاهرة